

النظام العبادى فى الاسلام

الدكتور محسن عبدالحميد

استاذ التفسير والعقائد الاسلامية، جامعة بغداد

الاسلام نظام متكامل للحياة، منسجم مع الوجود، متوافق مع الفطرة الانسانية . هذه المقولة الواضحة من بديهيات فهم ديننا الاسلامى العظيم، يفهمها من يدرس عقائده و يدقق احكامه، ويتعمق فى سفاهيمه وانظمته وشله وقيمته وأوضاعه .

أما انه نظام متكامل للحياة، فلاّنه يشمل جوانبها و يعالج أوضاعها، و يضع لها من الحلول الدقيقة الواقعية ما يعصمها من العرج والانحراف والسقوط فى سهاوى الضلالة . واما انه ينسجم مع الوجود، فلاّنه سنة من السنن، الدجال عقلا أن يصطدم مع نوايسه، لأن ذلك مناقض للكمال الالهى فى خلق الوجود و تنسيقه و ترتيبه .

قال تعالى : ”فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم و لكن اكثر الناس لا يعلمون . (الروم : ٣٠)

وأما انه يمثل الفطرة الانسانية، فلاّن الله الذى خلق الانسان وأودع فيه الاستعدادات والدوافع والسيول، يعلم فى علمه الازلى الكلل، ما الذى يفيدها، وما الذى يقوم اعوجاجها، وما الذى يأخذبها الى براالسان . فلذلك ارتضى سبحانه و تعالى لهذه العملية الحيوية أنظمة متعاقبة متوازية ما انحرّف عنها الانسان الانحرّف عن فطرته وسقط فى حماة المشاكل والتخبط والاضطراب .

وإذا دققنا النظر في الاسلام من حيث هو كل، رأيناه نظاما واحدا قائما بذاته، لا يقبل التجزئة القاطعة، ولا الفصل الكاسل بين اجزائه، لانها متداخلة ومتجانسة، يأخذ بعضها برقاب بعض في تنظيم رائع .

و ليس على الانسان الا أن يعبد ربه بخضوعه لذلك النظام العام في كلياته و جزئياته . فعلى ذلك فالحياة كلها عبادة في نظر الاسلام، لان المسلم اذا اطاع الله فيما أمر به و انتهى عما نهى عنه، في أى جانب من جوانب الحياة، فقد عبد الله تعالى، أى خضع له وسلم قياده اليه، ووحده الجهة التى يتلقى منها مثله و قيمه و مفاهيمه و مناهجه و شرائعه التفصيلية التى تنظم مختلف مجالات الحياة الفردية والجماعية .

ان الباحثين قديما وحديثا قد درجوا على بيان تلك الشرائع والانظمة تمشيا مع سنة الفكر في تجزئة الكل الى اجزائه الأولية حتى لا يستعصى شئ منها على الفهم، ولا يبقى جزء منها غامضا عند التطبيق على الحوادث . و سن انظمة الاسلام التفصيلية، النظام العبادى الذى هو بمثابة القلب من الجسم بالنسبة الى انظمتها الأخرى - لأن الاسلام اراد أن يكون للانسان قاعدة صلبة ينطلق منها بقوة الى اتخاذ المواقف الصحيحة من الحياة على تنوع مظاهرها . و هذه القاعدة هى التقوى . فعن طريقها يتكون الايمان الصادق و بها تنهذب النفس و تطمئن، و يتشرب القلب حلاوة الطاعة للمعبود الحق - خالق الكون و سبده جميع مظاهر الوجود .

و النظام العبادى في الاسلام يريد ايصال الانسان الى حفظ التوازن الكاسل بين الروح والمادة . أو بين النفحة الالهية والشهوة الحيوانية، التى تجمح فتؤدى الى الهلاك . ذلك لآن هاتين القوتين في صراع دائم، فكلما

كانت قاعدة الروح فى الانسان قوية مؤثرة هادفة، خرج من ذلك الصراع سعافى ذا رؤية واضحة، يمسك بزمام الموقف و يسيطر على نزوات الانحراف فيصحح مسارها و يوجه الفطرة السليمة الى الخير . و هذه القاعدة الروحية من التقوى والاتزان النفسى لا تتكون من الفراغ وانما وضع سبحانه و تعالى من أجل الوصول اليها نظام العبادة .

فالصلاة رقابة مستمرة و محاسبة بوصية :

واقم الصلاة، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت : ٤٥)
وهى اتصال رفيع و تامل عميق فى اسرار الوجود :

و ذكر اسم ربه فصلى، (الاعلى : ١٥)

قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة (ابراهيم : ٣١)

لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه

تعبدون . (فصلت : ٢٧)

وهى شكر دائم على نعمة الخلق والحياة :

الذين ان سكناهم فى الارض اقاموا الصلاة (الحج : ٤١)

يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم و اشكروا لله ان كنتم اياه

تعبدون . (البقرة : ١٧٢)

وراحة لقلق الضمير و سطمهرة لكافة عوارض الامراض النفسية التى نسميها

با مراض الحضارة :

انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته

زادتهم ايمانا و على ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة و سما رزقناهم

ينفقون . (الانفال : ٢)

والصوم كسر لشهوات النفس و تقوم لمواضع الاعوجاج في القلب، تعويد على الصبر و تحمل المشقة، و الشعور بالآلام الغير، و تخفيف للضغط المادى على حياة الانسان، و عبادة خالصة، تقود الى تربية الامة تربية ربانية رفيعة تستصغر البهيمية و تحول بين الانسان و بين الاستسلام الذليل اليها :

يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . (البقرة : ١٨٢)

والحج عبادة جماعية و تصفية للقلوب و مراجعة للرصيد و تذويب للفوارق و تعطيم للحدود والفواصل، و أخوة اسلامية و انسانية رائعة تنتهى الى حياة اجتماعية موحدة تتحول الى قوة رادعة، تحافظ على الحق و تدفع العدوان و تنصر المظلوم فى كل مكان :

الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله و تزودوا فان خير الزاد التقوى و اتقون يا اولى الالباب . (البقرة : ١٩٧)

لن ينال الله لحوبها ولا دساؤها ولكن يناله التقوى منكم (الحج : ٣٧)
والزكاة تقويم و تطهير، و قضاء على شح النفس و انسلاخ من عبادة المال، و اخوة و مشاركة و تعاون على البر و التقوى تمثل أعلى مراحل العدالة الاجتماعية بين بنى البشر :

خذ من اموالهم صدقة تطهرهم و تزكيتهم بها . (التوبة : ١٠٤)
و فى اموالهم حق معلوم . للسائل و المحروم . (الذاريات : ٥١)

و قراءة القرآن تمهيد عظيم للتطهير، وإدراك حقيقى عميق لقوانين الوجود،
وامتسلا م خاشع لاوامر الله تعالى، و تفقه فى دينه واستعلاء عزيز على الجوانب
التافهة من الحياة، وجولة مستمرة فى فلسفة الموت والحياة، ومرافقة اسينة لركب
الأنبياء والمرسلين ومحبة ثابتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم و صحابته الكرام :
ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات
أن لهم أجرا عظيما . (الابراء : ٨)

لقد جاء كم من الله نور و كتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه
سبل السلام و يخرجهم من الظلمات الى النور باذنه و يهديهم الى صراط مستقيم .
(المائدة : ١٨)

والدعاء مخ العبادة، وعلامة واضحة على تذلل و انكسار العبد امام
ربه، و طمأنينة فى القلب، و غزو منظم لمسارب النفس المظلمة باشعة الايمان،
و نور الهداية و تهذيب لها بجمال التوحيد، و جلال الربوبية :

واذ سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبواالى
وايؤمنوا بى، لعلهم يرشدون. (البقرة : ١٨٦)

واقموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين . (الاعراف : ٢٨)

تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا . (السجدة : ١٦)

وقال ربكم ادعونى استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون

جهنم داخرين . (سورة غافر : ٦٠)

و هكذا يعالج الاسلام عن طريق نظامه الروحى قضية الاصطدام بين المادة
و الروح و يقود فى هدوء و سكون الى الله سبحانه و تعالى ، و يبذر محبته فى النفوس

رينفذ الانسان من عبادة الالنداد التى تورث الاصطدام والحيرة والاضطراب والامراض الفردية والاحتماعية .

على أن النظام العبادى الاسلامى لا يطلب من الانسان قتل الغرائز، ومقاومة الدوافع الجبلية، والهروب من عالم الواقع المادى بدعوى العيش فى مملكة السماء، على ما كان يذهب اليه رجال الكنيسة وطبقة الاكيروس فى أوربا . واما يقوم بعملية تصفية، يوجه فيها الغرائز، و يهذب عن طريقها الدوافع فى حدود فطرة الانسان و فى نطاق استعداداته و عدم تكليفه فوق ما يطيق .

و من هنا فان ما يشكو منه كثير من المفكرين و الفلاسفة من قضية الهروب الروحى و قتل الجسد و نواضعه، و ترك تسخير العالم المادى و التكسل عن الاستفاده من قوانين الحياة واستغلالها، يتلاشى تماما فى ظل النظام العبادى فى الاسلام، لأنه نظام متزن فطرى معتدل لا افراط فيه ولا تفريط، يتماشى فى تناسق عجيب مع الانظمة الاسلامية الاخرى التى جاءت لتنظيم الهيئة الاجتماعية و توجيه قوانين الحياة و تسخيرها من اجل التقدم والمدنية و الوصول الى مجتمع انسانى سليم .

و من هنا فان النظام العبادى الاسلامى يتحول الى طاقة هائلة يدفع الى الحركة والعمل والكفاح فى الحياة لبناء الحضارة الانسانية الخيرة، و يسد الشغرات التى تنتج فى العالم المادى، نتيجة للدوافع الحيوانية التى تولد الصراع الحاد فى اعماق النفس الانسانية و التى تظهر على شكل مظاهر متنوعة كثيرة من الفساد العام الذى يصيب الفرد والجماعة، فيتحول المجتمع الانسانى الى مجتمع يسود فيه منطلق الاقوياء الجشعين، و الناهبين الظالمين و المفسدين الضالين .

ان النظام العبادى فى الاسلام يحافظ على الحضارة الانسانية من أن

تتحول الى اداة شقاء وبؤرة مرض كما حدث في الحضارة الحديثة عندما تحول الانسان في ظله الى آلة جامدة، ثم الى مجموعة عقد مرضية ثم الى انحراف خطير ولد الثغرة الكبرى و الفراغ الهائل الذي يريد المربون معالجته ولكن بدون جدوى، ذلك لانهم عندما جزأوا الانسان و عالجه مقطع الاوصال لم يصيبوا ولم يدركوا حقيقته الكبرى من حيث هو كائن ثنائى مركب من المادة والروح، وليس نموذجاً من النماذج الحيهانية الكثيرة المنتشرة على الكرة الأرضية .

ان بعضا من هؤلاء يعالجون الداء بالداء و يصفون وصفات مادية لأمراض نتجت الغلو في المادية و عبادتها و اعتبارها الحقيقة النهائية في الوجود.

و البعض الآخر يدعون الى نظام روحى خالص يتنكر لقوانين الخلق وطبيعه الحياة ولا ينسجم معها، ويولد نمودجا باهتا لحل اعرج لا يقل فى البعد عن الحل الصحيح عما قدسه الأولون.

و هكذا يستمر المرض و يتوسع فى الحضارة الحديثة، لينتقل الينا فى عالمنا الاسلامى الكبير، فيلحق بنا اضرارا معنوية و مادية فادحة، و يقود الى المأساة التى وقع فيها العالم الغربى فى ظل ما انتج من نظام حضارى أعور لا ينظر الى الحياة الابعين واحدة، هى عين المادة الصماء .

و نحن فى ذلك نتجاهل اهداف النظام العبادى الذى أقره الاسلام، و اراد من المجتمع ان يتخذ وسيلة الى الصلاح والخير ونولى ظهورنا الى السنن الالهية
الثابتة :

و سن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا . (سورة طه : ١٢٤)

و اذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول

فدمرناها تدميرا . (سورة الاسراء : ١٦)

ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
وأن الله سميع عليم . (سورة الانفال : ٥٤)

و ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان
فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . (سورة
النحل : ١١٢)

وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مسلمون (سورة هود : ١١٨)
ذلك بما قدست ايديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد . (سورة آل عمران : ١٨١)
ونحن اليوم فى العالم الاسلامى بأشد الحاجة الى تربية ابناء الامة على
النظام العبادى فى الاسلام حتى لا تعصف بنا الانحرافات الحضارية المادية
و تقتل فى اجيالنا مقومات الايمان والفضيلة والحياة المتزنة .

نحتاج الى النظام العبادى الاسلامى، حتى يشرق الايمان من جديد على
نفوس ابنائنا فيوحدوا الله سبحانه و تعالى ولا يقعوا فى عبادة الانداد التى تمزقهم
و تضرب بعضهم ببعض .

نحتاج اليها لكي يتحرروا من نفوسهم الاسارة بالسوء، لان هذا النوع من
التحرر الوجدانى هو أعلى مرحلة من مراحل التحرر الانسانى، فمشاكل الحياة
و تجاوز الناس بعضهم على بعض تأتى نتيجة لعدم التحرر من سلطان النفس و شهوات
الحياة والهوى .

نحتاج اليها حتى يشعروا بكيانهم وعزة وقوة امتهم و شخصيتها المستقلة
المتميّزة .

نحتاج اليها حتى يستسهلوا الصعب و يسترخصوا الغالى فى سبيل كرامة
الامة والدفاع عن مقدساتها وأرضها و مستقبلها الحضارى المؤمن .

نحتاج اليها حتى لا يتحولوا الى قطع من الحيوانات يفترشون الحدائق والطرق، و يرتكبون المفاسد والرذائل، و يتسلمون الى "التخلف"، (١) والضياع ويأوون الى كهوف الدعارة ونوادي القمار، و مجتمعات المنكر، و حلقات الافيون والحشيش والخمر.

نحتاج اليها حتى يدركوا واجبهم و يكونوا ايجابيين لا سلبيين، نافعين منطلقين فى الحياة، عاسلين كادحين مبشرين منتجين .

أن الطاقة الروحية فى الاسلام، قوة هائلة فى التربية والتوجيه لبناء الامة بناء قويا متينا كى تستطيع أن تنصر على مشاكلها وتخلفها فى الداخل، وسؤامرات اعدائها فى الخارج .

ان الامة الاسلامية نتيجة للتربية الاستعمارية الكافرة الطويلة التى تعرضت لها فى القرن الماضى والحاضر، قد فقدت فى حياتها حرارة الطاقة العبادية الهائلة التى جاء بها الاسلام، ورباها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها، والتى كانت دوما نبراس حياتها، و منطلق حضارتها، و اساس سعادتها، و سراننتصاراتها التاريخية الكبرى فى جميع معارك الحياة، ومع فقدانها من حياتها فقدت امورا كثيرة و اصابتها الهزائم المتلاحقة و فقدت ذاتها واصالتها و فلتت من يدها قيادة نفسها فضلا عن قيادة غيرها .

فهل يضع كل مسؤول، مهما كان موقعه من المسؤولية مخططا شاملا لتربية الامة على هذه الروحية الاسلامية الشفافة و قيمها و فضائلها و اهدا فيها السامية النبيلة كى نعود بحق كما كنا خير امة اخرجت للناس نأمر بالمعروف و ننهى عن المنكر و نعبد الله وحده لا شريك له .

(١) تعبير ساخر يطلق فى بلادنا على الشباب الضافعين التاطمين المقلدين الغرب تقليد القروء، باطالة الشعر، والتظاهر بمظهر القزارة واللامبالاة، و لبس الملابس المزركشة النسائية .